www.alukah.net اهداء من شبكة الألوكة

"بسم الله الرحمن الرحيم"

الرياض : ١٤١٢/١١/٢ هـ
٥/٥/ ١٩٩٢ م

رسالةٌ لم تكتمل إلى حبيبٍ لن يقرأها

والدي الحبيب ، أيها الراحل الغالي :

هذه أول رسالةٍ أخطّها إليك بعد أن غادرْتَنا إلى دار البقاء.

أكتبها والآهاتُ حبيسةٌ في صدري ، والألم يكوي قلبي ، والدموع تَفْبُشُ عينيّ فتضيعُ من خلفها السطور . أكتبُها وقد انقطع أملي بلقائك ،

وطالما كتبتُ لك وأنا أؤمّل أن ألقاك .

أيها الراحل الحبيب ..

قبل شهرين من اليوم أتيتَ إلينا .. ولكنّك لم تأتِ كعادتك .

لم تأتِ مشوقاً مبتسماً تحمل الحقائب الكبيرة ، والهدايا الكثيرة ، والأخبار والأسرار والأشعار .. لكنّك أتيتَ محمولاً على مِحَفّة ، والأنابيبُ في أنفك وفمك ، والإبرُ مغروزةٌ في صدرك ويديك ...

نظرتُ إليك وأنتَ غائبٌ عن الوعي ، فغاب قلبي ، وتخاذلت رجلاي ، وتخدّر وعيي ، وطفقتُ أجري وراء المِحفّة في أروقة المستشفى حتى وصلوا بك إلى سريرك في جناح العناية المركّزة ...

وتجسمتْ صورتُك ، وكبُرت ، حتى ملأتْ عليّ المكان ، فما عدتُ أرى في القاعة الكبيرة إلا سريرك ، وعليه جسدك مُسجّى : لا حراك ، ولا إدراك .. كنتَ غائباً عن الزمان والمكان ..

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

تجالدتُ ما وسعني التجلّد، لكنني بكيتُ من قلبي بدموعٍ حِرار، وهو قلتُ، واسترجعتُ، وتمتمت شفتاي بالرّضا لمن قدّر عليك ما أنت فيه، وبالحمد والشكر على كلّ حال... وأخذتُ أُردّد بصوتٍ لا يسمعه غيري:

رضيتُ بما ترضى به لي محبةً وقدتُ إليك النّفسَ قودَ المسلِّمِ

وصلتَ إلينا - أيها الحبيب - في اليوم الثاني من أيام رمضان، فصُمنا عن الفرح والسعادة كما صُمنا عن الطعام والشراب، لكنّ قلوبنا ظلّتْ معلّقةً بحبال الرجا والأمل بالله الرّحيم القدير أن يردّ إليك عافيتك، ويردّك إلينا. وكان لهذا الشهر الكريم مذاقٌ خاصّ في نفوسنا يختلف عن مذاقه أمثاله في أعوامٍ ماضيات.. كانت نفوسنا أكثر صفاءً والتفاتاً إلى الآخرة، وأكثر صُدوفاً عن الدنيا وبهجتها، كيف لا، ونحن في كلّ لحظةٍ معرّضون لأن ترحل عنا إلى غير رجعة، فينقطع أملُنا بلقياك..

أيها الراحل الحبيب:

ما أوجعَ الفقد، وما أوجعَ توقُّع الفقد لحبيب غال! ما أثقل اللحظاتِ التي تمرّ على المرء في تلك الحال، وقد توجّستْ كلُّ جارحةٍ من جوارحه، تتوقع أن يهويَ سيفُ اليقين في أيّةِ لحظة فيقطعَ حبل الرجاء! صُعوبةُ الرُّزءِ تُلقي في توقّعِهِ مُستقبلاً، وانقضاءُ الرُّزءِ أن يقعا

ومرّتِ الأيام ثقيلةَ الخطو، لا تفتحُ لنا من كُوى الرّجاء سوى فتحاتٍ كرؤوسِ الإبر، كثقوبِ النجوم في سقفِ سماءٍ سوداء، غاب قمرُها، وصفا جوُّها، ومسحَ أديمَها الكُحلُ فأخفى كلَّ شيءٍ إلا

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

تلك الذرّاتِ اللامعةَ البرّاقةَ التي لا تكاد تُمسكها خيوطُ البصرِ حتى تنفلت منها ، ومع ذلك : فلَم جمعنا من تلك الشُّعاعاتِ الهاربةِ حزماً صغيرةً من النّور تضيءُ قلوبنا الحزينة ، وقدّمنا بها يأسنا اللهيف لنستطيع أن نُسيغ بعضَ الطّعام والشّراب اللذين لا حياة للناس إلا بهما ، ولنخدع جفوننا المرهقة ، وأعصابنا المتعبة ، حتى تطبقها وترحل في عالم النوم العجيب ، الذي تتناوب فيه الأحلام : صفاءٌ وكدر ، سعادة وشقاء ، انطلاقٌ وانعتاق ؛ حتى الأحلام كانت - أحياناً - تعرّي آمالنا ، وتجلدها بسياطِ الفقد ، والحُرقة ، والدموع .

آه كم دعونا لك في سويعات الإجابة ، مع تُمَيرات الإفطار ، وقُطيرات زمزم ، ونُسيمات السَّحر ! كم رفعنا أكُفَّنا الحيّية ضارعةً إلى الله ، نحن وأولادنا من أحفادك وأسباطك الذين لا يزالون ينعمون بطهر طفولتهم البريئة السعيدة ، تلك الطفولة التي بدأت تُحسّ وتعي بالمصيبة المحتملة ، فإذا بها تستعير من غيوم أحزاننا ما يُغطي فيها - إلى حين - شمس سعادتها وسرورها .

دعني أنقلْ لك بعض رسائل ابنتي (حُسنى) إليك ، بعض رسائلها التي كانت تكتبها على أوراقٍ من دفاترها ، وتضعها فوق مكتبي لأقرأها عندما أعود . وحُسنى - كما تعلم يا أبي - لمّا تبلغ السابعة من عُمُرها بعد .

تقول في رسالتها الأولى : « أبي الحبيب ، كيف حالك ؟ كلّ عام أنت بخير . أنا أشعر على جدّي أنه يتألّم ، أنا أريد أن أدعي له يا أبي ، وأنت ماذا تُحسّ عليه ؟ ألم تقلق عليه يا أبي ؟ ... »

الجديد و طهري NEW & EXCLUSIVE

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وتقول في الثانية: "جدّي الحبيب الغالي، أريد أن أراك في المستشفى ولكنهم لا يسمحون لي بالدخول يا جدي. وأنا حزينة جداً عليك، وأريد أن تشفى اليوم إن شاء الله تعالى، رتُك وربُّنا جميعاً يا جدي. إلى اللقاء".

ورسمت في أسفل الصفحة وجه بنتٍ تنحدر من عينيها دمعتان.

أما في رسالتها الثالثة والأخيرة فتقول: "إنّ جدّي مات. انتهت حياته، وأنا حزينة جدّاً عليه. سأبكي ثم أصرخ عليك، وأريدك معي في البيت يا جدي الحبيب.. آها - آها - آها.. اللهم ارحم جدي وأدخله الجنة اللهم قل له: إني بكيت عليه"!

وفي أسفل الصفحة رسمت وجه بنتٍ تنسكب من عينيها دموعٌ تتراكم لتملأ الورقة كلها!!!

أحمد البراء الأميري

الجديد و طرح NEW & EXCLUSIVE